

البعد الروحي لنظام حلقة العزابة

محمد ناصر بوحجام *

بعد سقوط الدولة الرّسّميّة سنة 296هـ / 908م، التي كانت تمثّل الإمامة الكبرى عند الإباضيّة في المغرب الإسلامي، التي تُعنى بالقيام بشؤونهم، وإقامة شرع الله وتنفيذ الحدود، احتاج أصحاب هذا المذهب إلى تنظيم يعوّض الدولة، ويقوم بديلا عن الإمامة الكبرى، يرعى الشّؤون، ويقوم المصالح، ويقف على تنظيم الحياة؛ طبقا لمبادئهم وأصولهم، التي هي أصول إسلاميّة، ومن جهة أخرى يعمل على لمّ شملهم بعد زوال ما كان يجمعهم وهم تحت ظل دولة.

فكروا أيضًا فيما يحفظ مجتمعهم من الضّيعاع والتّفكّك فوقوا بعد جهود، وبعد سنوات عدّة من العمل والتّجارب والمحاولات، واهتدوا إلى إيجاد تنظيم يكفل القيام بهذه المهمّات الكبيرة، التي هي مسؤولية دينيّة في الدّرجة الأولى، أو هي منبثقة من هذه المسؤولية الدّينيّة، التي تفرض التمكين لدين الله في الأرض؛ بالبحث عن الوسيلة الممكنة لتحقيق ذلك، والوسيلة يجب أن يراعى فيها ما يضمن شموليتها لكل النّواحي المطلوبة في حياة المسلم، من هنا جاءت حلقة العزابة لتلبي هذا الطّلب، وتحقق هذا الغرض، فبدأت حلقة علم وتربية، تعلم الطّلبة وتكوّنهم حتّى ينفوا الجهل عن أنفسهم أوّلا، ثمّ يتقدّموا إلى المجتمع ليقوموا بواجبهم الدّيني بعد ذلك، وهو ما حدث فعلا فإنّ الحلقة بدأت تعليميّة تربويّة، ثمّ تطوّرت وتوسّع مجالها فأصبحت تنظيمًا اجتماعيًا كبيرًا، يشرف على حياة المجتمع الإباضي المغربي، ينظّم ويسير مجالته الدّينيّة والاجتماعيّة والتربويّة والاقتصاديّة والسياسيّة، أي أصبح نظامًا شاملا لكل القطاعات، له هياكل ومؤسسات، تتحكّم في حياة المجتمع، تنظّمها وتسيرها وتوجّهها، وتطوّرها؛ انطلاقًا من المسجد إلى المؤسسات والهيئات إلى العشيرة والأسرة والفرد، إلى الشارع والسوق، وإلى كل زاوية وركن في المجتمع... وبذلك يمثل هذا التنظيم الإمامة الصّغرى عند الإباضيّة المغاربة.

إنّ هذا التّنظيم هيئة تشرف على تسيير هذا المجتمع بما يكفل له الاستمراريّة والمحافظة على خصوصيّته، وتحقيق أهدافه في ظل دينه الإسلامي، الذي يدعو إلى القيام بواجبه الدّعوي والسيّهر على شؤون المسلمين، بمنهج سليم، وتخطيط محكم، يراعي الدّقة والواقعيّة والشموليّة والصّرامة...

بدأ هذا النّظام بسيطًا على شكل حلقة علم متجولة بين القرى والمناطق، أسّسه المعلّم والدّاعيّ أبو عبد الله محمد بن بكر الفرستائي النّفوسي (ت 440 هـ) في بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي لأجل تعليم النّاس أمر دينهم، ونشر الدّعوة بينهم، ثمّ تطوّر حتّى أصبح تنظيمًا شاملا يتولى تسيير جوانب الحياة المتعدّدة. وهو موجود في كل قرية من مناطق الإباضيّة المغاربة.

إنّ هذا النّظام يستمدّ روحه، ويصدرُ في سيره وتنظيمه عن الشريعة الإسلاميّة ومقاصدها، يقول الدّكتور محمد صالح ناصر: (وهيئة العزّابة هي الهيئة العليا في البلد على الإطلاق، لها النّفوذ الرّوحي على المجتمع الإباضي، والسّلطة المطلقة في كل ما له علاقة بالدين، أو هي في عبارة موجزة: الهيئة الشّرعية الحاكمة القائمة مقام الإمامة العظمى في مرحلة الكتمان)(1).

إنّ هذه الهيمنة على المجتمع، والتّحكّم في تسييره من هيئة معيّنة مسؤوليّة دينيّة، تتبني التّوجيه الموحّد، الذي هو من روح الإسلام، الذي يتوخى الوحدة والانسجام في كل شيء: في المبادئ، في الأهداف، في المقاصد، في التّصور... كما هو ترتيب استراتيجي ومنهجي، يرمي إلى ضمان التّعليم والتّكوين الصّحيحين، والتّوجيه الحسن المنسجم مع الأصول والمبادئ، والمتناغم مع الأهداف. من هنا يتّضح البعد الرّوحي لهذا التّظيم. نتساءل أوّلاً عن مدلول كلمة العزّابي؟ ولماذا اتّخذ هذا التّظيم هذا المصطلح؟

مفهوم العزّابة

يقول الأستاذ إبراهيم طلاي: (مصطلح العزّابي مأخوذ من لفظ: (عزّب) ومدلوله هو من (يعزّب) عن الدّنيا ومغرياتها، ويتّجه إلى الآخرة والدّعوة إلى الإصلاح والتّدين؛ بإرشاد النّاس وتوجيههم)(2). ويقول الدّكتور محمد ناصر: (والعزّابة جمع عزّاب بفتح العين، مأخوذ من عزّب عن أهله، انفرد عنهم، سمّوا بذلك لانقطاعهم إلى الله؛ بالاشتغال بأمر دينه)(3).

إذن مصطلح العزّابة يعني الانقطاع إلى الله، والعمل له بإخلاص، من دون البحث عن أيّ جزاء ولا شكور، إلا ما عند الله من الأجر والثواب. هذا الانقطاع ليس اعتزلاً عن الدّنيا، والزّهد فيها كليّة، إنّما هو التّفرّغ لخدمة المجتمع من دون انقطاع، وعدم طلب ما في الدّنيا من متاع، مقابل هذا الابتياح.

إنّ الاسم الذي تسمّيت به هذه الهيئة يكشف عن البعد الرّوحي الذي تشتمل عليه، ويفصح عن العمل الكبير والنّبيل الذي يقوم به من ينضمّ إلى هذه الهيئة، ويظهر الجانب الإيجابي في العمل ضمن هذا التّظيم، الذي يدعو إلى تحمّل ثلّة من عباد الله مسؤوليّة السّهر على شؤون المسلمين، والقيام بتوجيههم وإرشادهم وتوفير أسباب التّفقه في الدين لهم، والأخذ بأيديهم إلى ما يصلح دينهم ودنياهم. هذه المهمة تتطلّب بذل جهود كبيرة في هذا السّبيل، يكون على حساب بعض المتطلبات الشخصية من أمور الحياة، لكن من دون العزوف عن الدّنيا كليّة.

إنّ (روبانيكسي) وهو أب مسيحي إيطالي، أخطأ التّأويل، وجانب الصّواب، حين فسّر كلمة (العزوبة) بأنّها تعني ترك الزواج، وحاول أن يوجد لتفسيره دليلاً من كتب سير الإباضيّة، ومن مواقف بعض علماء المذهب، فأشار إلى ما قاله أبو القاسم مخلد، أحد أئمة الإباضية في النّصف الأوّل من القرن الرّابع الهجري، حين سأل عن أحد تلاميذه وقد غاب عن حلقات الدّرس، فقيل له: تزوّج، فقال: (لأنّ يبلغني موت واحد من التّلاميذ أحبّ إليّ من أن يبلغني تزويجه، فقالت له زوجته: فلم تزوّجت أنت إذا؟ فقال لها: لو علمت مكان مسألة ليست عندي لما ردّني باب النّوى إلى (سجلماسة) لشددت إليها رحلي، ولا أخاف

أن يعذبني الله إلا على الجهل).

فاستدلال (روبانيكسي) بهذا الخبر ليؤيد به تفسيره للكلمة ليس في محلّه، ومحاولته الرّبط بين نظام الحلقة وبين الرّهبانية المسيحيّة أمر مفضوح؛ لأنّ الرّواية تدلّ دلالة قاطعة على أبا القاسم إنّما يقصد إلى توجيه تلاميذه للاشتغال بالعلم وهم في مرحلة الطلب. ولو كانت نيّته عدم الزواج لبدأ بنفسه(4).

إذن لا يذهب التأويل بالباحث بعيداً؛ فينأى يدور هذه الهيئة عن هدفها ويسلب منها بُعدها الإسلامي، بتقديم تفسير يحط بها في غير محطتها الإسلاميّة، وبعد ذلك يفرغها من بُعدها الرّوحي الصّحيح. وما يؤكّد هذه الرّوح الإسلاميّة التي تحملها الهيئة، القراءة التي نقرأها في الشّروط المطلوبة في العضو الذي ينخرط في الحلقة، أو الذي يرشح إليها.

يشترط في العزّابي الالتزام بمبادئ الشريعة الإسلاميّة، والاتصاف بالورع، والتّحلي بالأخلاق الفاضلة، والعناية بحفظ القرآن الكريم ومدارسته، وعمارة المسجد وحضور مجالس الذكر، والانقطاع للعبادة... كذلك يشترط في العزّابي أن يكون عمله لله، لا يأخذ أيّة أجرّة على ما يقوم به في إطار هذه الهيئة، يقول الشّيخ محمّد عليّ دبّوز: (...إنّ الميزابين يتمسّون بهذا الشرط، والعزّابة في المدن الميزابية يتمسّون به: العمل لله، من دون أجرّة ماديّة، يأخذونها من أحد؛ حتى لا يتقدّم إلى وظائف المسجد إلاّ كل كفاء نزيه، يرضاه خيار المدينة لدينهم. ولا- يرغب في هذه الوظائف الدّينية إلاّ الورعون الأكفاء، الذين يسيطر عليهم دينهم، وغيرتهم على الدّين، لرضى الله، ورغبتهم في أن يتقرّبوا إلى الله بأكبر العبادات، وهي خدمة المجتمع وتنقيفه، والنّهوض فيه بأنقل الأعباء)(5).

بهذا التّوجّه، وهذا المنهج، وهذه الخطة يضمن المجتمع السّير الحسن لشؤونهم؛ إذ أنّه يبتعد في التّسيير عن المصالح الخاصّة، وينأى عن الاستغلال، ويبتعد عن طريق تحقيق أهدافه ومصالحه كل من يسعى إلى عرقلتها، أو المساس بها. هذا النهج يدرب الأفراد على التّضحّيّة والإخلاص والصّدق وإتقان العمل، وكلّ الأخلاق التي يدعو إليها الإسلام، وفي هذا يبرز البعد الرّوحي في التّنظيم والحركة، وبهذه الرّوح يحدث الانسجام والتّعاون والتّآزر في أداء المهام.. فما هي مهامّ حلقة العزّابة؟

مهام هيئة العزّابة

يقول الأستاذ إبراهيم طلاي: (نظام العزّابة نظام اجتماعي مبني على مراعاة الدّين والمحافظة عليه، والقيام بمهمّة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وإرشاد الجهلة والأغرار، ولهذا النّظام يرجع الفضل في بقاء رونق الإسلام وطهارته في ميزاب فترة من الزّمن طويلة، وفي محافظة غالب السّكان على تعاليم الإسلام واتباع نهجه)(6).

بما أنّ العزّابة هم المشرفون على الحياة العامّة للمجتمع الإباضي في كلّ مناحيه ومجالاته، فإنّ مهامهم متعدّدة تعدّد الجوانب المطلوبة في الحياة، بمعنى أوضح وأصرح: إنّ مهامهم شاملة لكلّ النّواحي، شموليّة الإسلام لكلّ جوانب الحياة. إنّ طبيعة مهام العزّابة هي طبيعة رسالة الإسلام نفسه، إلاّ أنّ المهمّة الرّئيسة للهيئة والأولى، سواء في طور نشأتها أم فيما تلا من مراحل، وما حدث من تطوّر، هي التّربيّة والتّوجيه والتّعليم. يقول الدكتور محمد ناصر: (كانت المسؤوليّة التّربوية هي أهمّ ما تقوم به الحلقة في عهود نشأتها

الأولى، بل إن تربية النشء والعناية بتحفيظهم القرآن، وتعليمهم اللغة العربية والشريعة الإسلامية كانت المهمة الوحيدة التي كانت الحلقة قد أنشئت من أجلها، وهذا إدراك من علماء المذهب وشيوخه بأن التربية هي أهم الوسائل التي تنشئ الأجيال المسلمة عقيدة وعملا، وهي من الطرق التبليغية التي تضمن الاستمرار للمجتمع المحمدي مذهباً وسلوكاً(7).

إن المهمة الأولى والأساس في عمل العزابة هي التربية والتعليم، وتعليم الدين أولاً؛ لهذا كانت عنايتها بالقرآن الكريم والسنة النبوية في الدرجة الأولى، ثم ببقية العلوم؛ بما تستطيع إلى ذلك سبيلاً. إنها تحرص على إيجاد الوسائل المحققة لهذا الغرض، وبذل الجهد الكبير في هذا السبيل، وابتكار الطرق والمناهج التي تدعو إليها الحاجة. فزيادة على الاعتناء بتحفيظ القرآن، تقيم مجالس لتلاوته الجماعية في المسجد بصفة دورية مستمرة، في أوقات متعددة كل يوم، تنتهي بختمة بعد أيام قليلة. بالإضافة إلى الإشراف على المحاضر أو الكتاتيب الملاصقة للمسجد، التي تعنى أساساً بتحفيظ القرآن الكريم، وتلاوته في أوقات معروفة معلومة كل يوم، بين أوقات الصلوات: بين صلاتي الظهر والعصر، المغرب والعشاء، بين الأذان الأول وأذان الصبح... هذا الذي مكّنها من تحفيظ الصبيان أجزاء من القرآن الكريم، وتلقينهم مبادئ العقيدة والفقه واللغة العربية... وسمح لها من فسح المجال للكبار كي يتدارسوا القرآن، ويعمروا أوقاتهم بالاشتغال بالذكر وقراءة القرآن...

من المهام التي يوليها العزابة عناية كبيرة، ويرونها فرضاً عليهم؛ بكونه واجباً دينياً مهمة الوعظ والإرشاد التي لا يخلو منها أي مسجد للإباضية، في كل يوم من أيام السنة، فهم يعدّون المسجد مدرسة ومركز إشعاع، منه يأخذ الناس مختلف طبقاتهم ومستوياتهم وتخصّصاتهم- دينهم بصفة دورية ودائمة، لهذا كانوا يهتمون بالوعظ والإرشاد اهتماماً كبيراً، فلا يقتصرون في المسجد على الصلاة وقراءة القرآن فحسب، بل يوسعون من دائرة العبادة إلى ما يحقق فهم دين الله فهماً جيداً، وتطبيقه تطبيقاً صحيحاً. وهم يؤمنون أن هذا لا يتأتى إلا بتوظيف البيت الذي أمر الله - عز وجل - أن يرفع، ويذكر فيه اسمه، ويسبّح فيه بحمده، أحسن توظيف؛ بما يحقق تطبيق مفهوم العبادة تطبيقاً حسناً.

بما أن العزابة هم المسؤولون عن حماية المجتمع ممّا يمسه في جوهره، ويناله في سلوكه، فإن من مهامهم معاقبة المنحرفين عن سواء السبيل، والذين يقترفون الموبقات، والذين يجاهرون بالمعاصي، فيقومون بتنبه العاصي وإرشاده، ومحاولة إعادته إلى جادة الطريق، وفق ما تدعو إليه الشريعة وترشد إليه، فإن أصرّ قاموا بتأديبه، وقد يصل الأمر إلى إعلان البراءة منه على الملأ في المسجد؛ جزاءً وفاقاً للجرم الكبير الذي أتاه؛ ليرتدع ويكون عبرة لغيره.

يلجأ إلى هذا الأسلوب في الردع محافظة على حرمة الدين، وصوناً للمجتمع من الانحرافات والتدهور والانحدار والتسيب. وكما قيل من بدأ في الانحدار، سرعان ما يصل إلى القرار. بهذه الطريقة، والتزام هذا الإطار، قد يسلم المجتمع من الانحدار والوصول إلى القرار.

إن البراءة أو ما يعرف بالهجة الميزابية بـ (التبريت) إجراء أو عقاب شديد على من

يستحقه؛ حيث تعلن حلقة العزابة في منبر المسجد ببراءتها من الفرد المتمرد، وتكشف عن مخالفته الشرعية أو الاجتماعية، وتأمراً بمقاطعته، ومنع أي تعامل معه، إلى أن يندم، ويرجع بإعلان توبته العلنية في المسجد، أمام حلقة العزابة وعامة المصلين. إن هذا الإجراء يحرم الشخص المحكوم عليه بهذا الحكم من حقوقه المدنية ما دام على تلك الحال حتى يعترف ويتوب مما اقترفه.

إن البراءة في حقيقتها وفحواها: مقاطعة الشخص المجاهر بالمعصية، المستهتر بالقيم، والمتجاوز للأعراف الاجتماعية؛ بما يلحق الضرر بالمجتمع بالمنظور الإسلامي. هجرانه والامتناع عن التعامل معه بأي شكل من أشكال التعامل: مكالمته، زيارته، الجلوس معه... إلى أن يتوب ويثوب إلى رشده، ويرجع عن ذنبه. يستثنى من ذلك حالة واحدة، وهي دعوته إلى التوبة وإصلاح حاله.

يعدّ هذا الإجراء أحد الضوابط التي تقوم أخلاق الناس، وتردع العصاة والمنحرفين المنتهكين لحرمان الله تعالى، والخارجين عن إرادة الجماعة وطاعتها والمستهزئين بأعراف البلد.

يقول الدكتور عوض محمد خليفات: (إن هذه القسوة في العقاب والتوبيخ، التي استخدمها العزابة، والتطبيق الصارم لمبدأ البراءة من المذنب، هما اللذان حفظا وحدة الإباضية وتماسكهم)(8).

من مهام العزابة السهر على شؤون الأيتام والأرامل والفقراء والمحتاجين، وحماية الضعفاء ممن لا يقوى على شؤونه. يقومون بهذه المهمة بالتنسيق مع عشائر البلدة.. كما يقومون بضبط العلاقات بين الناس والفصل في الخصومات، وإزالة أسباب التوتر بين الأفراد والجماعات. يقول إبراهيم طلاي: (وقد حكى لنا التاريخ عن أشياء تمثل مظهر السلطة في المدينة، كان الإشراف عليها للعزابة، فهم الذين يتولون الفصل بين الخصوم. والترافع يقع في صحن المسجد بين صلاتي الظهر والعصر...)(9).

إن عمل العزابة كما رأينا لا يبقى محصوراً بين جدران المسجد، ولا يتحركون إلا في داخله، بمعنى أنهم لا يكتفون بالوعظ والإرشاد فيه، ويتلقون مشاكل الناس واستفتاءاتهم داخله، بل هم ينتقلون إلى كل مكان ليقوموا بواجبهم الديني الذي يفرض عليهم الاهتمام بكل مناحي الحياة، ولن يتأتى لهم ذلك إلا- إذا كانوا حاضرين في كل هذه الأماكن، بالوسيلة التي تسمح لهم بذلك، وإن كان المنطلق يكون من هناك من المسجد روحاً وتحركاً، يقول الدكتور محمد ناصر: «...بل إن المهام تبدأ من هنا لتذهب إلى أبعد، حيث تتغلغل في أعماق المجتمع؛ فتفقده في نواحي حياته كلها، في السوق والمتجر والحقل والمصنع، توليه الرعاية والتوجيه المستحقين.

والعزابة يحرصون كل الحرص على تنظيم العلاقات الاجتماعية، التي تربط بين أفراد المجتمع؛ بما يقتضيه كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا يتأتى هذا إلا بالتدخل المنظم والمواكبة المستمرة لحركة التطور داخل المجتمع، وهو ما يجعل المجلس يتابع عن كثب ما يحدث من تغيرات، ويرعى خطوات الجماعات والأفراد في الأفراح والأتراح؛ حتى لا تجرفهم تيارات المدنية الوافدة، وحتى لا ينحرفوا عن أصالتهم وقيمهم

ونظمتهم(10).

المهام غير محدودة، وغير قاصرة على جانب دون جانب، إنها متعدّدة بتعدّد مناحي الحياة، وشاملة شمول الشريعة الإسلامية، التي يسطر العزّابة وينظّمون ويوجّهون أعمالهم على ضوئها، ويصدرون عنها في أفعالهم وأقوالهم، وهي متطوّرة ومُتجدّدة بتغيّر الحياة وتجديدها. فهم يشرفون على الجانب الاقتصادي بالقوّة التي يشرفون بها على الجانب الاجتماعي، جادّين في جعل التعامل فيه، لا يخرج عن حدود الشرع. يقومون بهذا الواجب وعظماً في المساجد، وتوجيهاً في الميدان، وتصحيحاً وتقويماً للانحرافات في العمل وفي أشكال التعامل...

من أمثلة ما يقوم به العزّابة في هذا الجانب:

- مراقبة البيع والشراء في الأسواق ومحاربة صور الغشّ والخداع والتّحايل والاحتكار، وبصفة عامّة محاربة الانحراف في التعامل بكل أشكاله.

- فضّ النزاعات التي تكون بين المتعاملين والشركاء.

- قد يشرف العزّابة على عمليّة الجرد والتّقويم السنوي للتّجارة، يتمّ هذا بطلب من أصحاب المحلّات التجاريّة؛ ضماناً لعدم الانحراف عن الدّين في التعامل التجاري؛ إذ العزّابي الذي يقوم بالعمليّة يعرف كيف يطبّق الشرع في هذه العمليّة، وربّما صحّح بعض الأخطاء التي يكون قد ارتكبها التّاجر في تجارته، ثمّ بوجّهه إلى الطريق الصّحيح.

- اهتمّوا بخاصّة - باقتصاد البساتين وواحة النّخيل، وضبطوا أموراً ضابطاً محكّماً، فنظّموا علاقة الناس المتعاملين في الحقل الفلاحي بما لا يتعارض مع الشريعة الإسلاميّة. وبذلك كانت تختفي أو تقل بين المتعاملين والنّاس مظاهر النزاع والخصام. لعل من أبرز ما ألف في هذا المجال كتاب (القسمّة وأصول الأراضين) للشّيخ أبي العباس أحمد بن محمد بن بكر، وقد اختصره الشّيخ امحمد بن يوسف طفيش في كتاب سمّاه (مختصر العمارة).

- الإشراف على تصريف مياه السّيول حسب ما تقتضيه مصلحة الواحات بوادي ميزاب.

- السّهر على المحافظة على المصالح العامّة وتنظيم شؤون البلدة على ضوء الشريعة الإسلاميّة كالأسواق والمسالخ، وسواقي المياه والسّدود... بحيث توجّه لمنفعة كلّ الناس لضمان حقّ كل فرد بما يأمر به الشرع.

- مراقبة التّخطيط المعماري للمدينة؛ بمراعاة الحقوق الفرديّة والجماعيّة، حسب ما توجّه إليه الشريعة والأعراف المحليّة، التي لا تتعارض مع الدّين، بعد أن وضعوا حدود المنازل والبساتين والطرق.

إنّ مهامّ العزّابة لا تقف في حدود توفير شروط العيش، والدّفاع عن الحقوق، والإشراف على سير الحياة... بل تتعدّأها إلى تحمّل تبعات الدّفاع عن أيّ تدخّل أجنبي، يريد المساس بأيّ ناحية من النواحي التي تخصّ المجتمع؛ بصفتهم المهيمين والمسؤولين على الحياة العامّة للمجتمع الإباضي. (وقد قاموا بهذا الدور الخطير في كل المراحل التاريخيّة التي مرّت بها منطقتة وادي ميزاب، فكانوا حارس المجتمع في حالات السّلم والحرب، والأمن

والفتن، والاستقرار والاضطراب، وقد لاحقهم الاستعمار الفرنسي من أجل هذه السّلطة الروحيّة، كما لاحق رجال الدّين في كل شبرٍ من القطر الجزائري، ومارس ضدّهم كل أنواع العسف والإرهاب؛ حتّى أصبحت كلمة (الطلبة) في تقارير الحكام العسكريين إبان فترة الإحتلال تعني الخارجين عن القانون، أو المشاغبين ضدّ السّلطة المحليّة الحاكمة، التي يمثلها (القياد)(11).

إنّ هذه المهمة تتدرج ضمن العمل السّياسي الذي هو مناط بأعناق العزّابة، وهو جانب لا بد من التّمرّس فيه؛ لحماية الدّين من الممارسات الخارجيّة، التي تريد للمنطقة وللبلد أن يتحوّل عن نهجه، ويتوجّه شطر الغرب.

هناك أمثلة كثيرة لهذا الدّور وهذا التّصدّي لتلك الحملات والمؤامرات المتكرّرة، وفي كلّ مرّة تجد من يقف أمامها سدّا منيعًا، وحاجزًا صلبًا، يمنعها من الوصول إلى أهدافها، على رأس من كان يؤدّي هذا الدّور كان العزّابة.

من أمثلة ذلك تحديّ العزّابة، بموازرة أفراد المجتمع- لما عرف بالتّجنيد العسكري الإيجابي، الذي حاولت فرنسا تطبيقه بالقوّة على سكّان المنطقة ظلّمًا وعدوانًا، ونظرًا لما لهذا الإجراء من انعكاسات سلبية من النّاحية الدّينيّة، فإنّ المجتمع حاربه بشخص العزّابة ومن لف حولهم. وقد كان الصّراع شديدًا وطويلاً، دام عدّة سنوات، كان النّصر فيها للعزّابة والميزابيين، الذين فضّلوا : «أداء الضّرائب الباهظة مقابل الحفاظ على دين أبنائهم وأخلاقهم(12).

(ومن تاريخ هذا الصّراع نتذكّر موقف عزّابة القرارة (إحدى قرى ميزاب) ضدّ القائد (كاسي بن بهون) الذي فتح دورًا للعهر والقمار، متحدّيًا بذلك مشاعر المجتمع المسلم؛ بإغواء الشّباب وإفساده وابتزاز ماله، فما كان من جماعة البلد والعزّابة -أمام جبروت القائد- إلّا أن اهدتوا إلى حيلة بارعة، فاشترتوا من القائد تلك الدّور بتبرّعات المحسنين بأموال باهظة، ثمّ أغلقوها، وحولوها إلى أهداف اجتماعيّة نبيلة(13).

هذا التّحدّي لا يدلّ إلّا- على وعي العزّابة لرسالتهم، التي لا تقف في المفهوم الضّعيف للواجب الدّيني، ولا في تحديد مجال التّحرّك، الذي يجب أن يشمل كلّ ما يحمي الدّين من التّعدّي عليه، أي إنهم فهموا أنّ السّياسة هي الدّين نفسه. فمن أراد أن يمارس الدّين ممارسة صحيحة، عليه ألاّ يُبعد السّياسة من عمله؛ ولكن في حدود ما أمر الدّين وشرعه الإسلام؛ لأنّ هذا العمل يندرج ضمن ممارسة النّشاط والحركة، بدافع العقيدة التي تدفع إلى العمل من أجل التّمكن لدين الله في الأرض.

إنّ مهام العزّابة متعدّدة، تشمل الجوانب الدّينيّة والتّربويّة التّعليميّة والاجتماعيّة والقضائيّة والسّياسية والاقتصاديّة والدّفاعيّة... عدّد الأستاذ إبراهيم القرادي بعض هذه المهام والتنظّمات التي يقوم بها العزّابة مضبوطة ومرتبطة بالمسجد(14). وبهذا يتبيّن لنا أنّ عمل العزّابة شامل لجميع مناحي الحياة، ينتظم ويتعاون ويتناسق مع الهيئات التي يشرفون عليها في المجتمع الذي هم مسؤولون عنه. لا شك أنّ الاضطلاع بهذه المهام بهذه الصّورة وهذه الهيمنة على الحياة العامّة بهذه الطّريقة قد أدّى، ويؤدّي دورًا كبيرًا، فما هو هذا الدّور الذي أدّاه ويؤدّيه العزّابة في المجتمع؟

دور العزّابة

إنّ الدور الذي قام به العزّابة من خلال المهام التي تحمّلوها واضطلعوا بها كبير وعظيم، ظهر في التنظيم المحكم الذي تميّزت به تخطيطاتهم داخل المجتمع، وبدا في التسيير الجيّد المتميّز للأنشطة والأعمال في إطار المهام التي تكفّلوا بتحمّلها، وبرز في التنسيق والتعاون اللذين كانا بينها وبين الهيئات والمؤسسات التي يشرفون عليها...

لعلّ أبرز مجال سُدّ فيه للعزّابة دورٌ كبير هو مجال التربيّة والتعليم، الذي أولوه عناية خاصّة؛ وعظماً في المسجد، تعليماً في المحاضر (الكتاتيب)، عقدَ حلقات للعلم في رحاب المسجد وفي دور التعليم... يقول الأستاذ إبراهيم طلالّي: «لعلّ أكبرَ جهد قامت به حلقات العزّابة، وكان لها أقوى الأثر في المجتمع هو تنشئة الناشئة على التربيّة الدنيّة، وتعليمها وتلقينها القرآن الكريم. فلكل مسجد في ميزاب محضرتان أو ثلاث محاضر، تتلقى أطفال القرية، تعلمهم مبادئ الكتابة واللغة، وتحفظهم القرآن الكريم» (15).

التعليم هو الذي يرفع من مستوى أفراد الأمّة، وبخاصّة التعليم الديني الذي ينشئ الفرد على النموذج الذي يطلبه المجتمع. هذا ما نجح فيه العزّابة الذين كانت هيئتهم قد أنشئت من أجله في البداية، ثمّ تطوّرت وتوسّعت في مهامّها بتطوّر الظروف الزمانيّة والمكانيّة، والعوامل الداخليّة والخارجيّة... التي فرضت عليها الاستجابة للتغيّرات الكبيرة التي شهدها العالم عبر السّنوات المتعاقبة، لكنّها ظلت تُسَيِّرُ هذه المهام وتدير هذه الأعمال انطلاقاً من مهمّة التعليم والتربيّة والتكوين أو اصطحاباً لهذا الهدف الكبير والأساس؛ لذا نرى أنّ نظام التربيّة والتعليم الذي ابتدعه العزّابة، قد أسهم كما يقول الدكتور عوض محمد خليفات: (في فتح فرص التعليم الديني أمام أتباع المذهب الإباضي، وأتاح هذا النظام الفرصة لأبناء الفقراء من أتباع المذهب للالتحاق بمدارس العزّابة، وتلقي العلم والمأوى والأكل دون أجر، وبذلك حققوا مجانية التعليم في مناطقهم منذ أمد، يعود إلى القرن الخامس الهجري، وربّما قبل ذلك) (16).

كذلك نجح العزّابة في مهامهم وأدوا أدواراً كبيرة في النهوض بالمجتمع نحو الأحسن، بوسيلة الوعظ والإرشاد التي كانت القناة التي يوصلي بها العزّابة رسالتهم التبليغيّة، فقد كان درس الوعظ والإرشاد يقدّم بصفة منتظمة في كل يوم في المسجد، على مدار العام؛ لهذا ترك أثره الواضح في التوعية الدنيّة، يقول الدكتور محمد ناصر: (إنّ منبر الوعظ والإرشاد الذي هو من أهمّ مهامّ المجلس الديني، قد أدّى دوراً عظيماً في تطوير المجتمع الميزابي، وإخراجه من الظلمات إلى النور. بدأ ذلك في عهد الشيوخ الذين ظهروا على الساحة الاجتماعيّة والدينيّة في أواخر القرن الثالث عشر الهجري، ولكن التطوّر الحقيقي إنّما ظهر على يد الشيخ بيّوض مع بداية النهضة الإصلاحية، بعد الحرب العالميّة الأولى) (17).

في الجانب الاجتماعي كان دور العزّابة فيه أيضاً واضحاً، تمثّل في صهر المجتمع في بوتقة المنظومة الدنيّة، وصبغ سيرته بالصبغة الإسلاميّة، وتنشئته على التقيّد بمبادئ الدين في كل تحركاته، وبخاصّة حين يكون الأمر متعلقاً بتأسيس قاعدة، أو بناء هيكل أو إنشاء علاقة، أو تشييد مؤسسة... بصفة عامّة، إنّ البناء العام للمجتمع كان يشرف عليه العزّابة؛

ليكون على أسس صحيحة ومنتينة. يقول الدكتور محمد ناصر: (فأعضاء المجلس الديني هم العمود الفقري لكل التظاهرات الاجتماعية، يشاركون فيها بحضورهم اليومي، ويشرفون عليها، فترى صدور في الحفلات والمناسبات مخصصة لأعضاء الحلقة، لا يمكن أن يجلس فيه غيرهم، مهما كانت منزلته المادية أو الأدبية؛ تقديرًا من المجتمع لهذه السيرة التي توارثها عن أجداده، ومحافظة عليها، ليبلغها إلى أحفاده؛ لأنه مقتنع بأن التماسك والتضامن الاجتماعيين إنما يعودان إلى هذا النظام، الذي يوحد الأمة في المشاعر والمآثر)(18).

إن هذه السيرة هي نتيجة أولى بارزة لدور العزابة في تربية الأبناء على التقدير والاحترام، وتنشئتهم على الاحتفاء بالقيم الدينية، وتحكيمها في الحياة، من دون تردد. فوضع الثقة في العزابة؛ ليشرفوا على التظاهرات الاجتماعية، وجعلهم محور التحرك والتوجيه والإشراف هي ثمار التربية الروحية التي اعتمدها العزابة في عملهم.

العزابة أنفسهم يراعون هذا التقدير والاحترام، فلا يخيبون ظن المجتمع الذي أعطى فيهم الثقة الكاملة، فيتحركون للقيام بواجب التربية الاجتماعية المصبوغة بالصبغة الدينية. هم لا يكتفون بالمشاركة الشكلىة في مناسبات الأفراح والأتراح، وتسييرها تسييرًا روتينيًا مظهريًا، إنما يقومون بدور كبير وأساس في وضع الأنظمة واللوائح التي تنظم وتوجه سير هذه المناسبات طبقًا للشريعة الإسلامية، ولا- يتركون الأمور تسيير حسب الأهواء والعواطف والميول، أو تدار عن جهل وعفوية، وعدم دراية، وإلا- أفقدتها روحها، وأبعدتها عن صراط الله المستقيم، وأورثت المجتمع تصدعًا وانحلالًا وأبعدته عن التوازن الاجتماعي الذي يدعو إليه الإسلام، هذه السلبات تمكن العزابة -إلى حد بعيد- من تجاوزها بما وضعوه من ضوابط، وما أشرفوا عليه من تسيير هذه التظاهرات.

قال الدكتور محمد ناصر: (وتكون هذه المناسبات (الأفراح والأتراح) ذات الطابع الاجتماعي فرصة للعزابة للتأكيد على المحافظة على الوحدة والتضامن والتعاون بين أفراد المجتمع، فلا تتقضي هذه المناسبات أكلاً وشرباً، أو تجمّعاً وانفصاضاً، وإنما تغتنم في الأغلب الأعم للتذكير بالقيم الإسلامية الأصيلة، والحث على التثبّت بها، ومقاومة كل مظاهر الانحلال والتهاك والانحراف)(19).

إن ما أوصل المسلمين إلى الدرك الأسفل في التعامل والعلاقات، هو غياب هذا الدور الذي كان على العلماء والموجهين أن يقوموا به، فنشأت العلاقات المشبوهة، وطغت مظاهر الإسراف والتبذير، وسادت الفوضى التي أبعدت الناس عن دينهم، وتفشت ظاهرة الاعتناء بالمظهر المادي في التجمّعات، وغاب الجانب الروحي والمعنوي منه، وجعل الناس المعاني الحقيقية للتجمّعات التي سنّها أو أرشد إليها، أو هدى الناس إليها الإسلام، وهي التلاقي لتوطيد الروابط على عرى الإسلام، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، والقيام بالدعوة لدين الله؛ بتقديم النصيحة، والتنبيه إلى مظاهر الانحراف، ونشيدان الوحدة والتضامن والتآزر والتكافل والتوازن الاجتماعيين... الإيجابيات التي تتشدد بأمثال هذه التظاهرات تمكن العزابة من تحقيقها، بما قاموا به. هنا يظهر دورهم في المجال الاجتماعي، ويبرز البعد الروحي للحلقة.

(...وقد يتدخل العزّابي في البحث عن عمل شريف لمحتاجٍ أو يتيمٍ أو عاطلٍ عن العمل، كما يسعى لحفظ كرامة ذوي العاهات والأرامل والمرضى والمحتاجين إلى مساعدة إخوانهم الموسرين دون أن يشعروا بالذلة والهوان)(20).

دورها في المجال الاقتصادي كان مهمًا، توجيهاً للحياة أن تكون إسلامية الروح، من خلال الصّرامة في حمل الناس على التّعامل: بيعاً وشراءً بالطريقة التي أمر بها الإسلام، ومن خلال تشديد العقوبة على من يخالف تعاليم الدين في التّعامل، ومن خلال مراقبة الأسواق، وشهود عمليات البيع والشراء، في أثناء إقامة الأسواق. يسجل الدكتور موسى لقبال وهو يتحدث عن نظام حلقة العزّابة- الرّعاية الصّارمة للحياة الاقتصادية في المجتمع الإباضي. ويقول: هو في بعض صورهِ امتداد للحسبة المعروفة عند الدّول الإسلاميّة قديماً. ويذكر أنّ نظام الحسبة قد انقرض في العالم الإسلامي، أمام زحف المدنيّة الغربيّة بنظمها اللادينيّة: (ولم تبق آثار نظام الحسبة موجودة إلّا- في واحة ميزاب بين سكّانها الإباضيّة، وتتمثّل فيما يعرف بين أهل المذهب بنظام الطلبة أو (حلقات العزّابة)، في المدن السّبع ببلاد الشبكة)(21).

كان دور العزّابة كان بارزاً إذن في المحافظة على نظام مراقبة عمليات البيع والشراء في الأسواق، فهم يرون أنّه مسؤولة كبيرة، يجب الاضطلاع بها؛ إذ يكون لها انعكاسات إيجابيّة على حياة الناس، من هذا أنّه يجعلهم يشعرون بالأمن والطّمانينة، وهم يمارسون أعمالهم التجاريّة، ويقضون حاجاتهم المعاشيّة، وهو ما يؤدي إلى الاستقرار والشّعور بالثقة المتبادلة بين الأطراف في عمليات البيع. وإن كانت هذه المهمّة قد تقلصت في المدة الأخيرة، فلم تعد للعزّابة تلك السّيطرة على الأسواق كما كانت من قبل، لكنّ صوت العزّابة ما يزال له ذلك التأثير في حمل الناس على التّعامل بما يأمر به الشّرع. هذا جانب من الجوانب التي تبرز البعد الروحي لحلقة العزّابة.

المؤسّسات أو الهيئات المساعدة للعزّابة

نجاح العزّابة في مهامهم، وقيامهم بدورهم أحسن قيام كان نتيجة التّخطيط والتنّظيم اللّذين يعتمدان الهرميّة في الهيكلة والتّوجيه؛ حيث يكون المسجد ممثلاً في العزّابة- على قمة الهرم يشرف على الحياة العامّة، ويوجّه سلوك الأفراد والهيئات، ومنه تتداح مؤسّسات وهيئات وجماعات، تربطها به صلة الإشراف والتّوجيه، فتعمل هذه كلها مؤتمرة بأوامر العزّابة، ملتزمة بنهجهم؛ وبذلك يُضمّن التّوجيه الموحد، ويكفل التّضامن والتّآزر والتّعاون. فما هي هذه المؤسّسات والهيئات؟

تحت حلقة العزّابة توجد هيئة خاصّة بحفظ القرآن الكريم وطلبة العلم، تسمّى (إيروان)، وهم ممّن استظهر القرآن في الكتاب أو المدرسة، ويكونون متفرّغين للعلم، هؤلاء يساعدون العزّابة في بعض شؤون المسجد وفي تأدية مهامهم، ويكونون رديفاً لهم، ومن هذه الهيئة يرشح أفراد ليضمّوا إلى الحلقة.

لعامّة النّاس هيئة أخرى تتكوّن من الذين يتطوّعون في المجال الاجتماعي، تسمّى (إمّصوردان) تسند إليها أعمال: كخدمة المسجد وتنظيفه، وتهيئة مرافقه، وتوزيع الصّدقات، والقيام بتعليم الصّغار في المحاضر التابعة للمسجد، ويعرفون أيضاً بعمّار

المحضرة...

إلى جانب ذلك توجد جماعة أخرى تكلف بحراسة البلدة، والسهر على حفظ النظام فيها، وحراسة ممتلكات الناس؛ بمراقبة التحركات المشبوهة، والعمل على تطهير المجتمع من أوكار الفساد والتصدّي للانحراف. هذه الهيئة تدعى (لمكاريس)، وهم عادة ما يكون ممّن يتّصف بالشجاعة والقوّة واليقظة، وهم يمثلون (رجال الأمن) بالتعبير المعاصر.

مجالس العشائر تنظّم آخر، يقوم في إطارها مجلس كل عشيرة في القرية الميزابية برعاية شؤون كل الأفراد المنضوين تحتها، الذين تربطهم علاقة نسبيّة، أو لحمة اجتماعيّة، بماذا يقوم هذا المجلس؟ يهتمّ بكفالة الأيتام والأرامل والعجزة، أو يتولى رعايتهم، ويُعنى بشؤون الطلبة والمتعلمين، ويقوم بإصلاح ذات البين، يفضّ النزاعات، يتولى قسمة التّركات.

تعدّ هذه المجالس الهيكل الاجتماعي القاعدي، الذي يقوم على رعاية شؤون أفراد كلّ عشيرة. (كما يقوم أعضاء العزّابة، مستعنيين بمجالس العشائر على جمع الزّكاة من الأغنياء، وتوزيعها توزيعاً عادلاً. على مستحقيها بطريقة تكفل لهم الحياة الاجتماعيّة المتوازنة) (22). وبهذه الطّريقة يتكوّن بين أفراد العشيرة الواحدة تعارف وتعاون وتضامن وتآزر، يؤدّي إلى التّآلف والوحدة.

من مجموع رؤساء العشائر يتشكّل مجلس الأعيان أو (الضّمّان) أو (مجلس الجماعة) كما يسمّى، وهم يمثلون الهيئة التنفيذيّة، ويكونون في الغالب من أهل الرّأي والتّدبير والتّجربة والحكمة. يتمّ من خلال هذا المجلس التنسيق مع حلقة العزّابة في تسيير شؤون البلدة، وضبط الأمور، وفرض النظام. من مظاهر هذا التنسيق وضع لوائح تنظيميّة للأعراس، تتحكّم في شؤون الزواج، وتساعد الفقراء ممّن يرغب في الزواج وإحصان نفسه، دون أن يجد حواجز تمنعه عن ذلك.

هذا التّعاون والتنسيق اللذان يتمانّ بين الهيئات المختلفة في البلدة تحت إشراف العزّابة وتوجيههم، هما اللذان يؤدّيان إلى التسيير الحسن، الذي يضمن وحدة المنطلق، ويوفر وحدة التّصوّر، ويكفل وحدة المصير، كل ذلك يوصل إلى الأهداف بدقّة وإحكام وروية وتخطيط.

وتوجد في جانب التّجمّعات النسوية هيئة تسمّى (تمسردين) أي (الغسّالات) يعيّنهنّ العزّابة، يشرفن على المجتمع النسوي توجيهها ومراقبة وتسييرها لأموهنّ، بالطّريقة التي يتعامل بها العزّابة مع مجتمع الرّجال، ويكون بين العزّابة والغسّالات تشاور وتنسيق، ويقمن بأعمالهنّ تحت إشراف العزّابة، فالمرجعيّة دائماً واحدة هي المسجد، ممثلاً في العزّابة.

نسجّل أنّ هذا النظام المحكم (العزّابة) استطاع: (أن يستقطب كلّ التّنظيمات الاجتماعيّة، ويطبّعها بالطّابع الديني الصّحيح، ويغرس في نفوس الأفراد الولاء لله ورسوله فيما شرعه الدّين الحنيف من آداب الجوار والتكافل الاجتماعي والتّعاون على البرّ والتّقوى، ويتعهّد هذا النظام يقظة الضّمير الديني والحسّ المدني لدى الفرد والجماعة بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وأحكام الولاية والبراءة) (23).

لكل هيئة من هذه الهيئات، ضوابط خاصة، ولوائح داخلية، وشروط محدّدة لمن ينخرط فيها، لأبدّ من مراعاتها؛ ليضمن تنفيذ الأعمال التي تتاطب بها، وتحقيق الأهداف المتعلقة بها. ومن جهة أخرى إنّ هذا التنظيم يكفل عدم الإخلال بالنظام العام الذي ينتظم هذه الهيكلية الاجتماعية المتميّزة، التي تنزل في شكل هرمي، من القمة وهو المسجد -ممثلاً في العزّابة- إلى الهيئات التي تمثل القاعدة فيه. فما هي مكانة المسجد ودوره في اهتمام العزّابة و عملهم؟

الهوامش:

(* باحث من الجزائر.

- 1 - الدكتور محمد صالح ناصر: منهج الدّعوة عند الإباضية، ط2، نشر جمعية التراث، القرارة (الجزائر)، سنة: 1419هـ / 1999م، ص277.
- 2- إبراهيم بن محمّد طّلاي: ميزاب بلد كفاح، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1390هـ، ص40.
- 3- منهج الدّعوة عند الإباضية، ص276.
- 4- المرجع السّابق: ص277.
- 5 - محمّد علي دبّوز: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج1، ط1، المطبعة التّعاونية، (د. م)، 1385هـ / 1965م، ص195. عن شروط العضوية وكيفية الالتحاق بحلقة العزّابة، ينظر الدكتور عوض محمّد خليفات، النّظم الاجتماعية والتّربوية عند الإباضية في شمال إفريقية في مرحلة الكتمان، ط1، شركة المطابع النّموذجية، عمّان، الأردن، 1982م، ص38-42.
- 6 - ميزاب بلد كفاح، ص39.
- 7 - منهج الدّعوة عند الإباضية، ص293.
- 8 - النّظم الاجتماعية والتّربوية عند الإباضية في شمال إفريقية في مرحلة الكتمان، ص61.
- 9 - ميزاب بلد كفاح، ص48. ينظر أيضاً نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج1، ص208، 197. والنّظم الاجتماعية والتّربوية عند الإباضية في شمال إفريقية في مرحلة الكتمان، ص42-46.
- 10- منهج الدّعوة عند الإباضية، ص287، 288.
- 11- منهج الدّعوة عند الإباضية، ص298.

12- المرجع السابق، ص300.

13- المرجع السابق، ص301, 302. لمزيد من التفاصيل في معرفة الصّراع السّياسي بين العزّابة والمجتمع من جهة والقوّات الأجنبيّة الدّخيلة، وبخاصّة الاستعمار الفرنسي من جهة. ينظر أيضا عمر بن الحاج محمد، انكشاف الحالة لذوي الألباب والعيون، ومجلة (المنهاج) للشيخ أبي إسحاق أطفيش، ج7.

14- ينظر: الشيخ إبراهيم القرادي حياته وأثاره، ص46.

15- ميزاب بلد كفاح، ص81.

16- النّظم الاجتماعيّة والتّربويّة عند الإباضيّة في شمال إفريقيا، ص92.

17- منهج الدّعوة عند الإباضيّة، ص284. الشّيخ إبراهيم بن عمر بيّوض (1899-1981م) رائد من رواد الحركة الإصلاحية في الجزائر البارزين، الذين أسهموا في تطوير المجتمع الجزائري بعامّة، والميزابي بخاصّة، وكان له فضل كبير في تعليمه وتنقيفه، وتصحيح مساره في المجال الدّيني بخاصّة.

18- المرجع السابق، ص288. ينظر أيضا نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج1، ص205-208.

19- منهج الدّعوة عند الإباضية، ص291.

20- محمد ناصر، حلقة العزّابة ودورها في بناء المجتمع المسجدي، نشر جمعية التّراث، القرارة، الجزائر، سنة 1410هـ/ 1989م، ص28.

21- موسى لقبال، الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي، نشأتها وتطوّرها، ط1، الشركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 1971م، ص87.

22- حلقة العزّابة ودورها في بناء المجتمع المسجدي، ص28.

23- محمد سعيد (كعباش)، تاجنيت، ص24. ينظر عن موضوع: المجالس والهيئات المساعدة لمجلس العزّابة، النّظم الاجتماعيّة والتّربوية عند الإباضية في شمال إفريقيا في مرحلة الكتمان، ص47-56.